طُقُوْس عَادِيّة لِرَاحَة الْبَال

لم أتوقع أن أسمع صاحب العمارة وهو ينادي في الجميع، ويصرخ، حتى تعدى صوته حد ارتفاع الصوت، بـأن نصعد جميعا لسطح العمارة. وكنت أعيش في شقة بأجر بسيط في الشهر، متوسطة المساحة، مناسبة الارتفاع على الرغم من أنني تخطيت متوسط الطول الطبيعي بالفعل. كان معظم السكان من ذوي العائلات المحترمة، ميسورة الحال، مشاويرهم معدودة، لا يتركون القاهرة إلا في وقت المصيف أو لسبب طارئ. وبدأت أسمع بالفعل دبيب الناس وهم يصعدون لأعلى، يقرعون على الأبواب ليتأكدوا من خروج الجميع في نفس الوقت.

عندما وصلت لأعلى، وجدت جارتي السبعينية تذكر للجميع وتحكي أنها تعرفت على زوجها المتوفى، في إحدى المرات التي قفزوا فيها بمثل هذه الطريقة بالفعل، وبدأت تتحدث عن اختصار المسافات، والقفز فوق الأزمات اليومية، والرغبة المكبوتة، والنشوة الجنسية التي تصاحب التجربة وقد تصل لحد "النرفانا"، وبدون تناول أي نوع من العقاقير أو المنشطات فقط يحدث ذلك في حينه، ونشعر به تدريجيا. في إحدى الزوايا من خزان مياه عملاق، فرقة موسيقية صغيرة تعزف ألحانًا هادئة، وكان هناك مائدة محمّلة بمأكولات أعدتها النساء مسبقا.

فى مساءات الأيام السابقة، كان الجميع فى الأسرّة يمارسون التعب مع زوجاتهم، وفي الشوارع الطويلة يهرولون نحو اللاشيء، ويوغلون في أنفاق المعرفة حيث لا تصنع الأشياء بالنوايا الحسنة عسى أن ينجبوا المستحيل.. لقد أنهكني بالفعل كل هذا الضجيج المسكون بالعجز، بالتأكيد كل هذا سبب ذلك الجمع الكبير المفاجئ... وأنه حين يربطنا بنوع من العقد الاجتماعي، ينظم العلاقة بين المالك بالمستأجر، والجار بالجار، فإن التوحد على فكرة بحد ذاتها هو تجديد لهذا العقد. تعجبت فعلا من انبهار الناس بالموقف، وبدأ الجميع يعانقون من حولهم، ودخل آخرون في مرحلة ارتجال الأغاني، بينما قلل البعض الآخر من فرصة احتياجنا لأنابيب أوكسجين أصلا، ذلك لأننا من المقرر ألا نرتفع كثيرة عن منسوب سطح البحر، وأننا بالفعل قد وصلنا لمرحله التحليق.

وظل الناس يتوافدون على السطوح، لا أعرف حقا لكن ربما لمحت بالفعل بعض الوجوه المألوفة ممن كانوا يشتركون معنا في نفس الحي. بعضهم انضم إلينا من العمارات المجاورة، أخذ الجميع يتعارفون، وكأنها أول مرة، واعتذر البعض عن عدم تلبية زيارات سابقة، وعدم السؤال بعلة الانشغال الشديد.

وكان المنظر رائعا بحق ونحن نجتاز تلك الخطوط الواهية بين النشاط العقلي وقصورنا عن تخطي الخيال والممكن كما لم نفعل من قبل، بدأنا نخف رويدا رويدا، نرتفع عن هموم ومشاكل البشر، تحدث البعض أن هناك من لامس يديه من أعلى، لم يكن يريد أن يصحبه لأعلى، فقط كانت الأيادي تتدلى من أعلى وتصافح الجميع، ويوزعون علينا وعلى الآخرين بعضا من قطع السحاب الأبيض، أو يرشدون الجميع لأماكن مناسبة للراحة والجلوس قبل قفزة أخرى ... كان مشهد المدن والشوارع مدهشا بحق، خرج الناس في اتجاه الكورنيش والكباري المؤدية له، لاحظنا أنهم كانوا ينظرون إلينا ويلوحون لنا من بعيد، من بعيد جدا، كانت الأمهات تحملن أطفالهن، تحجبن عنهم أشعة شمس الصيف الحارة حتى يتمكن الصغار من رؤيتنا بوضوح، ربما لاحظ المتحدثون الرسميون باسم الجميع ظلالنا على المنصات، فعدلوا من وضعية رابطات أعناقهم أمام

الكاميرات.. شعور عشنا فيه عمرا كاملا، في لحظة عبرنا فيها كل الممكن وشعرنا به خفيفا مثل رعشة أول لقاء، حتى بدأ الممكن يعبرنا ممتدا.. قبل أن نصاب فجأة بنوبة بكاء عنيفة بدت بوضوح أنها كانت مكبوتة. وخطفت نظرة نحو السماء الباكية، وتأكدت أننى لست هناك بالفعل .. بدأنا نفيق بعدها تدرجنا ونحن نبدأ مرحلة السقوط لأسفل، كأوراق المطالب الثورية.